الأنثروبولوجيا

الموسوعة البريطانية

ترجمة: د. محمود حمدي عبد الغني

من الناحية الايتمولوجية (أو الاشتقاقية) تبقى الأنثروبولوجيا علم الإنسان، إلَّا أنها تمثل- في الواقع- العلم الوحيد من علوم الإنسان الذي يقدم، على نحو متواصل، هذه الفروع المعرفية التي توحدت أهدافها المشتركة في وصف الإنسان، وتفسيره على أساس الخصائص البيولوجية والثقافية للتجمعات السكانية التي تتوزع بينها، والتأكيد- طوال الوقت- على الاختلافات والتنوعات القائمة بينها. وفي هذا المضمار، فقد تلقى مفهوم السلالة من ناحية، ومفهوم الثقافة من الناحية الأخرى اهتمامًا خاصًا، وعلى الرغم من تواصل الجدال حول معانى هذين المصطلحين، فإنهما يمثلان- دون شك- المصطلحين الأكثر شيوعًا فى مفردات الأنثربولوجست.

أولًا: اهتمامات الأنثروبولوجيا:

لقد ولدت الأنثروبولوجيا، والاهتمام بدراسة الاختلافات الإنسانية، بعد الكشف في عصر الاسكتشاف عن المجتمعات التي ظلت خارج الحضارة التكنولوجية للغرب الحديث. وفي الواقع لقد اقتصر ميدان البحث- فى البداية- على تلك المجتمعات التي منحت ألقابًا مهينة واحدًا بعد الآخر: "همجى"، "بدائي"، "قبلي"، "تقليدي"، أو "قبل كتابي"، و"قبل تاريخي"... وهلم جرا. وما جمع بينها في المقام الأول، هو كونها تمثل المجتمعات الأكثر اختلافًا، والأكثر غرابة بالنسبة للأنثروبولوجي (الغربي)، فأثناء الأطوار الأولى للأنثروبولوجيا كان الأنثروبولوجيون إما أوروبيين، أو أمريكيين شماليين- عادة، وقد كان التباين بين الباحث وموضوع دراسته يمثل إحدى الخصائص المميزة للبحث الأنثروبولوجي، وقد قيل عن الأنثروبولوجي- آنذاك- أنه يمثل "فلكي علوم الإنسان".

في وقتنا الحاضر يدرس الأنثروبولوجيون أكثر من مجرد المجتمعات "البدائية"، ومع أن أبحاثهم لم تقتصر على المجتمعات المحلية القروية داخل المجتمعات الحديثة، وإنما امتدت إلى المدن، والمشروعات الصناعية، ظلت المجتمعات البدائية تمثل ميدانهم الأول والأهم للبحث، ولقد صاغت هذه المجتمعات وجهة النظر المستقلة للأنثروبولوجيا، وحددت ثيماتها الأساسية مقارنة بالعلوم الأخرى المهتمة بالإنسان، وإذا كان من المألوف أن تهتم الأنثروبولوجيا باستقراء أنماط السلوك الإنساني المنظور إليه في جميع أبعاده، وبتقديم وصف إجمالي للظواهر الاجتماعية والثقافية، فإن الأمر كذلـــك، لأنه سبق لها أن لاحظت المجتمعات الصغيرة، الأكثر بساطة وتجانسًا، والتي تتغير بخطى أبطأ مقارنة بالمجتمعات الحديثة، وهكذا فقد كان من الأسهل لها رؤيتها كوحدة مكتملة بذاتها.

وما قلناه حتى الآن يشير إلى ذلك الفرع من الأنثروبولوجيا الذى اهتم بالخصائص الثقافية للإنسان. وفي الواقع لقد قسمت الأنثروبولوجيا نفسها- بشكل تدريجي- إلى مجالين رئيسيين: **الأول** هو دراسة الخصائص البيولوجية عند الإنسان، والثاني هو دراسة خصائصه الثقافية، ولهذا الانقسام أسباب متعددة، وربما تمثل أولها في رفضها للاخطاء الاستهلالية المتعلقة بإقامة العلاقات المفترضة المتبادلة بين السلالة والثقافة، ومنذ القرن التاسع عشر انقسم ميدان الأنثربولوجيا- بشكل متزايد- إلى سلسلة من فروع المعرفة المتخصصة، التي استخدمت بدورها مناهجها وتقنياتها الخاصة في دراسة الإنسان، وقد مُنحت- بعد ذلك- عناوين مختلفة وفقًا للتقاليد القومية السائدة. وبين الجدول التالي العناوين المتداولة في أمريكا الشمالية، وفي أوروبا القارية.

المصطلحات العلمية لفروع المعرفة الأنثروبولوجية

فى أمريكا الشمالية وأوروبا القارية

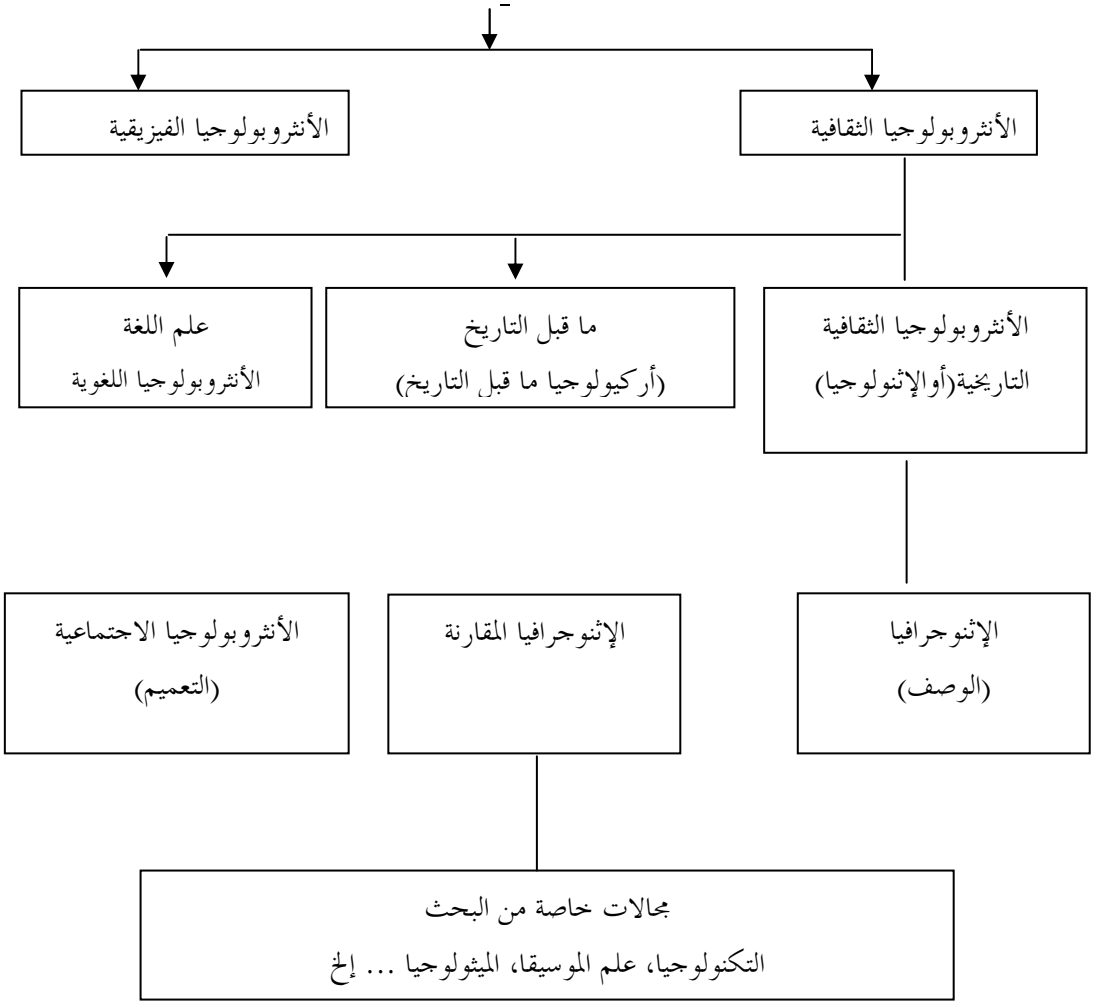

---

* لقد استخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا العظمي، إمّا بدلًا من الإثنولوجيا، أو الأنثروبولوجيا الثقافية، وهناك نزعة في فرنسا- الآن- لاستخدام مصطلح الإثنوجرافيا بدلًا من المصطلحات الثلاثة التي تصف مستويات راسخة من البحث في الاستخدام الأمريكي الشمالي، ويستخدم مصطلح الإثنوجرافيا- حصرًا- في أوروبا الشرقية ووسطها للإشارة إلى الإثنولوجيا.

الإثنولوجيا في أوروبا القارية

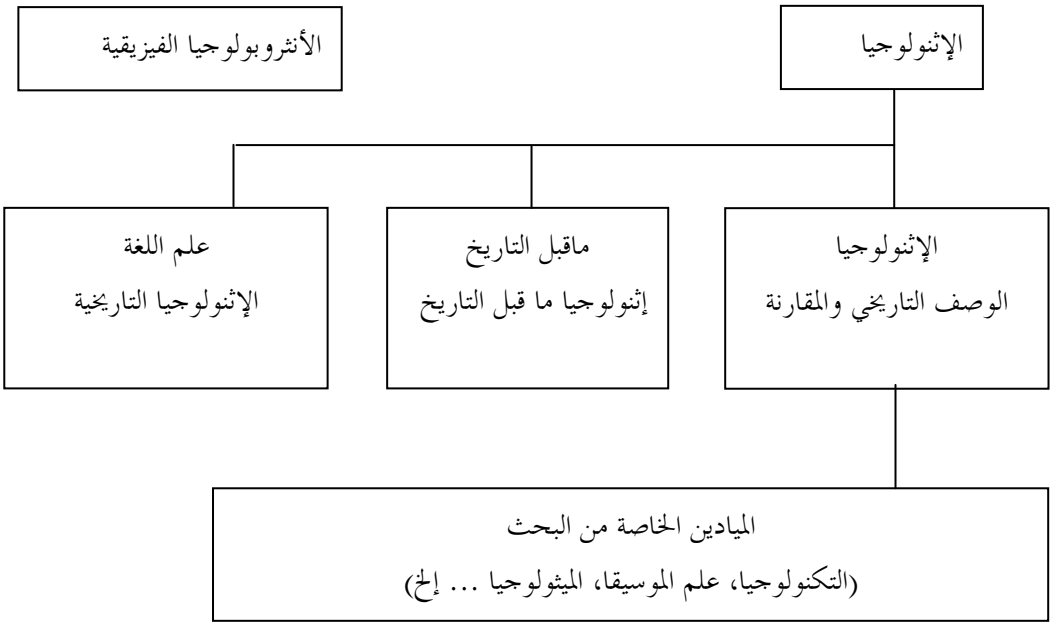

وهكذا غطى فرعا المعرفة الرئيسيان: الأنثروبولوجيا الفيزيقية، والأنثروبولوجيا الثقافية، وفروع المعرفة المرتبطة، مثل ما قبل التاريخ، وعلم اللغة- في وقتنا الحاضر- البرنامج الذي وضع- في الأصل- للدراسة المتفردة للأنثروبولوجيا. هذا وإن كان للأنثروبولوجيا الفيزيقية والثقافية علاقاتهما الخاصة بفروع المعرفة الخارجة عن نطاق الأنثروبولوجيا، ومن غير المحتمل أن يعمل الباحثون، بشكل متزامن، في هذين الميدانين من المعرفة، وذلك على فرض أن اللاتخصص قد صار شيئًا نادرًا في وقتنا الحاضر، وأن هذين الميدانين لم ينقطعا عن بعضها البعض قط، وثمة تعاون وثيق بين المتخصصين في المشكلات الوراثية، والديموجرافية النوعية وفيما عداها من المسائل الأخرى.

وهكذا فعلى الرغم من استقلال الموضوعات التي يعالجها كل من أركيولوجيا ما قبل التاريخ، وعلم اللغة، لم تنقطع حلقات الوصل بينهما والأنثروبولوجيا الثقافية ألبتة، فمع طرح مشكلة تطور الجنس البشري، بطريقة استقرائية، أسهمت الأركيولوجيا في خلق المفاهيم الأولى للأنثروبولوجيا، وفى كشف النقاب عن الماضي المنصرم غير الخاضع للملاحظة، ومع احتدام الخلاف حول تأويل استخدام الأدوات الأثرية الباقية، أو الظواهر الدينية الأولية، من المنتظر أن يفيد ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا الثقافية كل منهما الآخر، حيث لا يزال كثير من المجتمعات "البدائية"، التي لم تصل بعد إلى العصر المعدني، على قيد الحياة.

والعلاقات بين علم اللغة والأنثروبولوجيا متعددة الوجوه، فعلى المستوى العلمي الخالص من الواجب أن يخضع الأنثروبولوجي لفترة من التمهن اللغوى، وهو أمر لا يمكن أن يتم دون معرفته للغة الشعب الذي يدرسه، وقيامه بالمسح الأولي لها، وذلك لأن من المهم لديه أن يقوم بجمع مختلف أشكال التعبيرات الشفاهية، التي تحتويها الأساطير، والحكايات الشعبية، والأمثال،... وهلم جرا. وعلى المستوى النظرى، فقد استخدمت الأنثروبولوجيا كثيرًا من المفاهيم اللغوية، التي تطورت في ميدان علم اللغة، في دراسة المجتمع

بوصفه نسقًا من الاتصال، وفي تعريف مفهوم البُنية الاجتماعية، وفي تحليل الطريقة التي ينظم بها الإنسان خبرته الكلية بالعالم وتصنيفه لها.

وللفرع الرابع من المعرفة الأنثروبولوجية الرابع، الذي يمكن أن نحتفظ له، عن قناعة، باسم الأنثروبولوجيا الثقافية، علاقات وثيقة مع كثير من العلوم الأخرى. لقد سبق أن وُصفت السوسيولوجيا بأنها الاخت التوأم للأنثروبولوجيا، وأن من المفترض أن تتباين التوأمتان بفعل ميداني دراستهما (المجتمعات الحديثة في مقابل المجتمعات التقليدية)، ومع ذلك فإن التقابل بين هذين العلمين الاجتماعيين مقحوم، وذلك على فرض أنهما يلتقيان كثيرًا، بل وكثير ما تقتبس دراسة المجتمعات **الـــمُستعمَرة** من السوسيولوجيا، مثلما تقتبس من الأنثروبولوجيا الثقافية. ولقد لاحظنا- بالفعل- كيف تغلغلت الأنثروبولوجيا في الميادين الحضرية والصناعية، وهى تمثل، من الناحية الكلاسيكية، ميدانًا للسوسيولوجيا.

ولقد كانت هناك- أيضًا- مقايضات مثمرة مع فروع المعرفة الأخرى المتمايزة تمامًا عن الأنثروبولوجيا. فى العلم السياسي تعضد مفهوم الدولة، ومنشأها بفعل الأنثروبولوجيا. ولقد اعتمد الاقتصاديون، أيضًا، في النظر للمفاهيم الاقتصادية من المنظور المقارن الإضافي، على الأنثروبولوجيا، وفي مجابهة المفهوم الحقيقي لـــ"الإنسان الاقتصادي" (بشكل مريب أشبه بمفهوم الرجل الرأسمالي في القرن التاسع عشر الذى ارتبط بالاقتصاديين الكلاسيكيين). ولقد أمدت الأنثروبولوجيا السيكولوجيا بأسس جديدة لتأمل مفاهيم الشخصية، وكيفية تشكلها، وسمحت لها بتنمية نسق الطب العقلي المتقاطع ثقافيًا، أو ما عرف باسم الطب العقلي العرقي كذلك. وبالمقابل فقد قدمت العلوم السيكولوجية، وبالأخص التحليل النفسي، للأنثروبولوجيا فرضيات جديدة لإعادة تأويل مفهوم الثقافة.

لقد ظلت حلقة الوصل بين الأنثروبولوجيا والتاريخ تمثل، لفترة طويلة، حلقة وصل حيوية للغاية، وذلك لأنها اعتمدت، في الأصل، وجهة النظر التطورية، وناضلت لإعادة بناء التاريخ الثقافي للمجتمعات الشفاهية، التي كان من الصعب العثور على أي

سجلات تاريخية لها (بسبب غياب الوثائق المكتوبة لديها)، ولقد أوحت الأنثروبولوجيا، حاليًا، للمؤرخين بالتقنيات البحثية الجديدة المتصلة بتحليل التقاليد الشفاهية ونقدها، ولقد كان من نتيجة ذلك ظهور ما عرف بـــ"التاريخ العرقي". وأخيرًا، فقد كان للأنثروبولوجيا حلقات وصل وثيقة مع الجغرافيا البشرية، حيث يضع كل منهما أهمية كبرى على الإنسان، إما بوصفه مستخدمًا للمكان، أو عاملًا أساسيًا لتحويل البيئة الطبيعية، ناهيك عن أن بعض الأنثروبولوجيين الأوائل كانوا في الأصل جغرافيين.

ثانيًا: الخلفية التاريخية للأنثروبولوجيا:

لقد أبدت المجتمعات الإنسانية جمعاء الفضول بخصوص كيف نشأت أعرافها، وما تعنيه الاختلافات القائمة بين ثقافتها، وثقافات المجتمعات المجاورة، ومن ثم، فقد أقامت المجتمعات الإنسانية جمعاء، بمعنى ما، أنثروبولوجياتها الخاصة بها. ومع ذلـــك فقد ظلت التأويلات المقدمة- حتى وإن صيغت جزئيًا على أساس الملاحظة الدقيقة- في الأغلب الأعم على مستوى الأسطورة، وفي الواقع، لم يبدأ الفكر العلمي الجنيني في الظهور إلَّا في عدد محدود من مراكز الحضارة الإنسانية: في عالم البحر المتوسط الكلاسيكي، وفي الصين، وفي العالم الغربي أثناء العصور الوسطي، وفي العالم الغربي الحديث، ومع ذلك، لم تتقارب هذه الأفكار المتنوعة بطريقة أدت إلى ميلاد الأنثروبولوجيا العلمية إلَّا في العالم الغربي في القرن التاسع عشر فقط.

والصفة المشتركة التي جمعت بين سائر المراكز الحضارية هي هيمنتها على الأقاليم الفسيحة، والفرصة التي توفرت لها، من خلال الجنود، والتجار، والرحالة، والـــمُنصرين وغيرهم، لجمع الملاحظات حول التجمعات السكانية التي استوطنتها. وهكذا، فقد كان جمع المعلومات ضروريًا من أجل البدء في فهم كيف تكيف البشر مع بيئاتهم، وكيف استخدموا أعرافهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتنوعة، وكيف تطور الجنس البشري من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات المعقدة. لقد طرح المؤرخون والفلاسفة بين

الإغريق، والعرب، والصينيين القدماء تلك الأسئلة، وإذا أخذنا أوروبا الغربية فقط كمثال، فقد طرحت الأسئلة الوثيقة من قبل الفلاسفة الفرنسيين **جين بودان** J.Bodin **ومايكل دومونتين** M.de Montaigne في بداية القرن السادس عشر، ومن قبل الفلاسفة الإنجليز **توماس هوبز** T.Hobbes **وجون لوك** J.Locke في القرن السادس عشر، ومن قبل الفلاسفة الفرنسيين **مونتسكيو** Montesquieu، **وروسو** Rousseau **وفولتير** Voltaire في القرن الثامن عشر، وذلـــك إذا أشرنا فقط إلى مَنْ يوضعون تقريبًا بين الأسلاف المبشرين بالأنثروبولوجيا الحديثة.

– **بدايات القرن التاسع عشر**: لقد بدأت الأنثروبولوجيا الحديثة في التشكل قبيل منتصف القرن التاسع عشر، نتيجة ظهور سلسلة الاختراعات في العالم الغربي، ولقد بدأ الطور العظيم الأخير من اكتشاف العالم في نهاية القرن الثامن عشر، ومعه بدأت الثورات السياسية والفكرية في التشكيك في العقائد الدينية الراسخة، ومن ثم انفسح الطريق لمناقشة الموضوعات شبه المحظورة حتى ذلـــك الحين، وسرعان ما شهد القرن التاسع عشر اهتمامًا بدراسة أصل الإنسان ووحدة النوع الإنساني أو تعدديته، وثبات الأنواع الحيوانية أو تحولها.

وهكذا تطورت الأنثروبولوجيا، بوصفها نتاجًا للدراسات المعاصرة لتصنيف السلالات الإنسانية، والخصائص المقارنة للتشريح الإنساني، وتاريخ الاستيطانات البشرية، وتصنيف اللغات، ومقارنة الأجروميات اللغوية، والتطور التاريخي للاقتصاد والصناعة عند الإنسان، وأخيرًا في عام 1840 أُقترح مبدأ لدراسة الحقائق الإنسانية: مفهوم التطور. ولقد تم ذلـــك قبل أن يطبع **تشارلز داروين** C.Darwin كتابه المشهور "أصل الأنواع" في عام 1859. ولقد وفر هذا المفهوم– الذي آثار جدالات عنيفة– نقطة البداية للأنثروبولوجيا.

– **التطورية**: تقريبًا قرب نهاية القرن التاسع عشر حددت التطورية المظهر العام للعلم الوليد، ولقد ساد الاعتقاد أن المهمة الرئيسية للأنثروبولوجيا الثقافية هي تصنيف المجتمعات

والثقافات المختلفة، وتحديد الأطوار والحالات التي مرت بها الجماعات الإنسانية- وهو ما يعرف بالتأويل الخطي للتاريخ، فعلى حين تتقدم بعض الجماعات بشكل أبطأ، يتقدم بعضها الآخر بشكل أسرع، عند ارتقائها من البسيط إلى المعقد، ومن متجانس العناصر والخواص، إلى متغاير العناصر والخواص، ومن اللاعقلاني إلى العقلاني. ومن الملائم أن نقتبس من الأنثروبولوجي الأمريكي **لويس هنرى مورجان** L.H.Morgan : "مثلما لا يمكن إنكار أن أقسامًا من العائلة البشرية قد احتفظت ببقاها في الحالة الهمجية، وأن أقسامًا أخرى قد ظلت في الحالة البربرية، وأن هناك أقسامًا أخرى قد أصبحت فى حالة الحضارة، من الواضح أنه لا يمكن إنكار بالقدر نفسه أن تلك الظروف المتميزة الثلاثة مترابطة مع بعضها البعض في متتالية طبيعية وضرورية للتقدم". (Ancient Society, 1877)

ويمكن أن تتخذ الاقتباسات الأخرى من **سكوتسمان** Scotsman **وجون ماكلينان** J.F.Maclennan، أو من الإنجليزي **إدوارد تايلور** E.B.Tylor الموقف ذاته. إذن لقد بدأت الأنثروبولوجيا الثقافية بالتحليل الإجمالى الثقافة الإنسانية عبر الزمان والمكان، ولكنها، وبفعل افتراض التصور الخطى للتاريخ، أهملت، في أحوال كثيرة، انقطاعات التاريخ العيني، وتداخلاته. لقد شعر **مورجان، وتايلور** على الأخص، بضرورة اقحام مفهوم انتشار الخصائص الثقافية، أو امتدادها من شعب بالذات إلى ماعداه، ولذلك اقترحا أن الخصائص الثقافية يمكن أن تتطور مستقلة ثم تلتقي، وأن شعب بالذات يمكن أن يقفز فوق "مراحل" التطور بفعل استعارة المعرفة من الشعوب الأخرى. وعلاوة على ذلك، ومع أن الأنثروبولوجيا قد أسست نفسها على نظرية الاستشراف العقلي المتماثل لدى الجنس البشري بأكمله، وعالمية ما سُمي بالطبيعة البشرية، فلقد أخفقت في الأخذ فى الاعتبار حقيقة أن السمة الثقافية ذاتها قد تعنى أشياء مختلفة بالإحالة إلى المجتمع الذي وجدت فيه.

– **الماركسية والجماعون**: في الفترة نفسها، من النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطور ضرب آخر من التطورية، وهي تطورية **كارل ماركس** K.Marx و**فردريك أنجلز** F.Engles، مستقلة جزئيًا عن التطورية الأنثروبولوجية (حيث يؤرخ لنقد **ماركس** للاقتصاد السياسي ابتداء من 1859)، ومرتبطة جزئيًا بها (فقد ظهر العمل الأهم لـــ**أنجلز** بعد صدور كتاب **مورجان** "المجتمع القديم"، ومستفيدًا به)، ولقد أكدت النظرية الماركسية، أيضًا، على أسباب التطور الإنساني، وقامت بتعريف المجتمع بالإحالة إلى نموذج الإنتاج السائد فيه، والذي قامت عليه البنى الفوقية السياسية، والتشريعية، والأيديولوجية، ونظرًا لدوام بقاء البُنى الفوقية بعد تبدل نموذج الإنتاج، فأثناء الصراع الذي سيعقب هذا التناقض، سوف ينفتح الطريق إلى ظهور نمط جديد من المجتمع. لقد سلم كثيرون من الأنثروبولوجيين بالتحليل الماركسي، وإن كان ذلـــك للابقاء على وجهة النظرة التاريخية، ورفض الحتمية الاقتصادية.

وخلال الفترة ذاتها، وبالأخص قرب نهاية القرن التاسع عشر، احتوت حكايات الـــمُنصرين والتجار، والمغامرين الرحالة على مقدار غزير من المعلومات المتنوعة التي جُمعت في أعمال مثل: "الغصن الذهبي" Golden Bough للسير **جيمس فريزر** Sir J. Frazer (1890) و"الزهرة السرية" لـــ**إرنست كراولي** E.Crawley (1902)، ولقد كانت هذه المختارات الموسوعية للأعراف والممارسات الدينية والسحرية والمادة الغرائبية الأخرى، تُقرأ من قبل الجمهور الفكري- آنذاك- باستمتاع تام، ولقد صادفت النظريات، التي رافقتها، تقديرًا بالغًا من قبل الأنثروبولوجيين التطوريين، حيث كان المقصود بها تأسيس سلسلة تطورية للفكر السحري، والديني، والعلمي، واستخدام تلك المادة كأدلة لإثبات التطور.

– **تقسيم القرن العشرين**: منذ بداية القرن العشرين برزت الأنثروبولوجيا بوصفها علمًا اجتماعيًا، ولقد تقدمت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تلقائيًا، وأكدت ذاتها بوصفها علمًا طبيعيًا، واثقًا في صفته التراكمية، وتواصل تطوره الميثودولوجي، حتى استهلال ميدان جديد للبحث.

ثالثًا: تطورات في الأنثروبولوجيا الثقافية:

لقد أعادت الأنثروبولوجيا الثقافية استكشاف بعض الإسهامات التي لم تلق تقديرًا كافيًا من روادها القدماء، ولذلـــك يُعد **لويس هنرى مورجان**– في نظر البعض– أحد المبشرين بالمدارس الفكرية الحديثة. ولقد استمرت الأنثروبولوجيا الثقافية في طرح مختلف أنواع المشكلات التى كانت تطرح في الماضي: دور التطورية، ودور التطورات متعددة الخطوط في التاريخ الثقافي، والعلاقات بين المجتمع والثقافة، وبين الفرد والثقافة، وبين بُنية المجتمع وتغيره المستمر أبدًا.

ومع بداية القرن العشرين تحول عدد من الأنثروبولوجيين ناحية ما أُطلق عليه وجهة النظر متعددة الخطوط، ولتفسير تنوع المجتمعات والثقافات، وتوسيع الاختلافات التي تفصل بينها، اقترح هؤلاء التسليم بالظروف الإجمالية لكل جماعة إنسانية بفعل دراسة إجمالى تاريخها، والاتصالات التي أقامتها مع ماعداها من جماعات، والظروف المواتية، أو المناوئة التي رجحت تطورها. لقد تميزت هذه النظرة بـــ **النسبية الثقافية** المشهورة: لقد اتخذت كل ثقافة خطًا تطوريًا أصيلًا، وتكيفت بفعل بيئتها الاجتماعية والجغرافية، في آن معًا، وبفعل الطريقة التي استخدمت به المواد الثقافية التي وصلتها من جيرانها أو غيرهم (من خلال الانتشار) وأثرت فيها بفعل إبداعها الذاتي (من خلال الاختراع، و"التكيف").

1– مدارس الأنثروبولوجيا الثقافية فى القرن العشرين:

– **بواس ومدرسة تاريخ الثقافة**: لقد نوعت الأنثروبولوجيا الثقافية مفاهيمها ومجالات بحثها دون التخلي عن وحدتها أيضًا، ولقد كان **فرانز بواس** F.Boas، الأمريكي الألماني المولد، على سبيل المثال، واحدًا من الأوائل الذين هزأوا من تنقيب التطوريين عن الوقائع

المختارة التي تتفق ونظرياتهم التطورية التجريدية، وأهم عددًا من الدارسين- **روث بنديكت** R.Benedict، و**ألفرد كروبر** A.L Kroeber، و**مرجريت ميد** M.Mead، و**إدوارد سابير** E.Sapir للسفر، والبحث عن شواهد سلوك الإنسان بين البشر في بيئاتهم الطبيعية، واقتحام ميدان الترال لجمع الحقائق، والمنتجات الإنسانية، وتسجيل العمليات الثقافية، ولذلـــك عُرف **بواس** بأنه الأب المؤسس لمدرسة تاريخ الثقافة في الأنثروبولوجيا، وهي مدرسة سيطرت على الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية تقريبًا طوال القرن العشرين.

وإلى جانب تأكيد **بواس** على العمل الميداني، والملاحظة المباشرة ، يمكن أن يقال، أيضًا، إنَّه جنح للوظيفية، أو المدخل الوظيفي، وهو مدخل تأسس على النظريات السوسيولوجية في آواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولقد اهتمت الوظيفية بتشبيه المجتمعات بالكائنات الحية، أو الآلات الميكانيكية، التي تعتمد فيها الأجزاء تباديًا على بعضها البعض. وبتعبير **مالفيل هيرسكوفيتش** M.J.Herskovits، وهو أحد تلاميذ **بواس**: "تحاول وجهة النظر الوظيفية دراسة العلاقات المتبادلة بين العناصر المتنوعة، الصغيرة والكبيرة، في ثقافة محددة بالذات، ويتمثل هدفها الرئيسي في بلوغ التعبير عن الاتفاقات في تلك الثقافة، بالإشارة إلى كيفية تمازج السمة، والمركب، والنمط- بصرف النظر عن استقلالها- معًا، مثـــل **التروس المتعاشقة** في الآلة، لبناء الكل الوظيفي المكتمل المفعل بفاعلية، والعامل بهدوء" (Man and His Works, 1948) ، لقد أكد **بواس** على منهج دراسة الثقافة بوصفها كلًا مكتملًا، ومع تأكيده على أهمية جمع تواريخ الحياة لفت الانتباه- في النهاية- إلى المشكلات التي طرحتها الارتباطات بين **الثقافة والشخصية**.

- **موس و"المدرسة السوسيولوجية"**: بطريقة مماثلة، لقد أثر **مارسيل موس** M.Mauss، في فرنسا، على الاتجاهات المميزة لجيل كامل من السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين الأوروبيين، ومنهم **ألفرد مترو** A.Métraux ، و**كلود ليفي شتراوس** C.Live Strauss، وأنشأ معهد الإثنولوجيا بجامعة باريس. ولقد أثر، أيضًا، في عدد من

الأنثروبولوجيين البريطانيين المشهورين، ومنهم **برونيسلاف مالينوفسكي** Malinowski، و**أرنولد رادكليف– براون** A.R.Radclife-Brown . وبشكل عام يمكن أن يقال إنَّه أكد، مثل **بواس**، على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية بوصفها **نسقًا** *a system* ، وإن اختلف عنه قليلًا، ومثل معظم معاصريه فقد تصور الأنساق بوصفها **ذاتية** التنظيم، أو باحثة عن التوازن، ومؤلفةً من العناصر التي تتفعل من أجل الحفاظ على تكامل النسق أو تكيفه. وفي الواقع، لقد وفر **موس** زخمًا قويًا لما عرف باسم البنائية، أو المدخل البنائي، على فرض أنه لم يركز على المجتمع بوصفه يعبر عن العلاقات المتبادلة بين الأفراد (اهتمام الوظيفيين)، وإنَّما ركز بشكل أكبر على المجتمع بوصفه كائنًا اجتماعيًا كليًا (غير قابل للتجزيئ)، لقد حاول **موس** أن يتوأم، مثل **بواس**، بين الثقافة والشخصية، أو بين الأنثروبولوجيا الثقافية والسيكولوجية.

– **الانتشاريون الكبار**: علينا عدم الخلط بين المدرسة الأمريكية الكبرى والمؤثرة لأنثروبولوجي "تاريخ الثقافة"، الذين قادهم **بواس**، والمجموعة المتمايزة الأصغر من الانتشاريين الألمان النمساويين، الذين قادهم **فريتز جرابينر** F.Graebner، و**فيلهلم شميت** W.Schmidt ، الذين أنشأوا المدرسة التاريخية الثقافية في أوروبا. ولئن رفض **جرابينر** و**سميث** التطورية الكلاسيكية للقرن التاسع عشر، جنحا إلى وضع النظريات الكبري، وبخاصة النظرية التي تقول إنَّه انطلاقًا من عدد قليل من المراكز الثقافية القديمة أو الحضارات– التي نشأت بشكل مستقل تمامًا– تطورت سائر الثقافات الباقية حتى وقتنا الحاضر. لقد كان الانتشار الثقافي، أو انتشار سمات الثقافة يمثل، في رأيهما، القوة الرئيسية للتطور الإنساني، ولقد استقر في روعهما أن من الممكن تعقب آثار التطور الثقافي بكامله حتى عدد قليل من المراكز الخلاقة، ولقد أطلقا على المراكز الأصلية اسم **العناقيد الثقافية** Kulturkreise، ولقد عُرفت هذه المراكز، أيضًا، في الأنثروبولوجيا بهذا الاسم. ولقد أيد هذا النوع من التاريخ **الزائف** رهط من الانتشاريين البريطانيين، بقيادة **جرافتون**

إليوت سميث G.E.Smith **ووليام بيري** W.J.Perry، ولقد حدد هؤلاء **مصر** بوصفها تمثل المنبع الرئيسي للتطور الثقافي بكامله.

– **الوظيفية والبنائية**: لقد رفضت بعض مدارس البحث التي تطورت في فترة ما بين الحربين العالميين بشكل صارم المداخل التاريخية، وأنكرت، أحيانًا، الاهتمام بها على الإطلاق. فوفقًا للوظيفيين الثقافيين، ومن ضمنهم اتباع **مالينوفسكي**، كان ثمة طريق وحيد لتفسير الحقائق، وهو ينحصر في تحديد الوظيفة التي تقوم بها في ثقافة بالذات، ولقد اعتقد هؤلاء أن هدف البحث الأنثروبولوجي كله هو **فهم الحاضر الحي** لثقافة محددة بأكمله، والارتباط العضوي القائم بين مختلف أجزائه، ونظرًا لأن كل ثقافة تمثل **عالـــمًا متفردًا** بذاته لم يكن للمقارنة عندهم أي معنى، و لم يكن للتاريخ، كذلك، أي معنى، على فرض أن من الواجب تأويل الثقافة المحددة في نقطة محددة من الزمن، دون أهمية لـــ**عمر** العناصر المؤلفة لها، وأصلها، وأن الشيء الوحيد الذي يجب إدخاله في الحسبان هو الوظيفة التي تؤديها العناصر في الوقت الحاضر. لقد تحدث الأنثروبولوجيون الأقدم عن "الرواسب"، أو "الأعراف"، وما عداها من السمات الثقافية، التي عاشت– حتى وقتنا الحاضر– انطلاقًا من الماضي، بالرغم من غياب وظيفتها، أو معناها في الوقت الحاضر، ومع ذلك فقد أنكر **مالينوفسكي**، والوظيفيون "الرواسب"، على فرض أن الأشياء– جميعها– حاضرة، وأن لكل منها وظيفة ما.

وعلى حين ارتبط اسم **مالينوفسكي** بالمدرسة الوظيفية، عُرف اسم **رادكليف براون** بوصفه المناصر الأهم للبنائية الحالية، لقد حاول **رادكليف براون** وغيره من البنائيين– الذين استعانوا بمفاهيم الرياضيات الشكلية وعلم اللغة– تحديد ما إذا كان بمقدور الأنثروبولوجيا الثقافية أن تكشف عمّا يوحي بأن ما يميز نسق بالذات يتجاوز العالم الإمبريقي، وهو ما يمثل الموضوع الحقيقي للعلم (**ليفي شتراوس**)، بالنسبة للبنيويين لم تكن البُنية هي إجمالى العلاقات الاجتماعية، لأن هذه العلاقات البنائية لم تكن تمثل إلَّا

المادة الأولية التي يستخلص منها **الـــمُلاحِظ** "النماذج البنائية"، فالبُنية نسق **لا يعيه** أعضاء المجتمع المدروس، أو أنهم يعوونه بشكل جزئي فقط، ولم يكن للنموذج، الذى يضعه الأنثروبولوجي، انطلاقًا من النسق الكامن أية مشروعية إلَّا إذا كان بمقدوره تفسير سائر الحقائق الملاحظة. لقد أثبت هذا المدخل الدقيق فائدته، وبخاصة في دراسة القرابة، والعلاقات الزواجية، بالإضافة إلى الأساطير. ولقد عملت صعوبات تطبيق المدخل البُنائي في الميادين الأخرى، بالإضافة إلى صعوبة إدراج التغيرات التاريخية في هذا النوع من التحليل الاستاتيكي، على تقوية الاعتراضات التي أثارها عدد من الباحثين في هذا المضمار.

– **السيكولوجيا الثقافية**: لقد دفع التطور في فترة ما بين الحربين بعض الأنثروبولوجيين للحديث عن فرع معرفي جديد، وهو السيكولوجيا الثقافية، أو السيكولوجيا العرقية، ولقد قام هذا الحديث على فكرة أن الثقافة تتحكم في البُنية السيكولوجية الفعلية للأفراد (كمقابل للتصّور الأقدم للعقل العالمي، أو الطبيعة البشرية). وخلال الثلاثينيات اكتشفت **روث بنديكت** R.Benedict، أثناء دراستها للجنوب الغربي الأمريكي، أن الأساليب التي يفكر بها هنود البيبلو Pueblo، وينظرون بها إلى الأشياء، كانت تختلف، بشكل قاطع، عن الآساليب التي يفكر بها جيرانهم الأقربون وينظرون بها للأشياء، حتى وإن تماثلت بيئاتهم الجغرافية بالفعل، أما استنتاجها، فقد كان أن كل ثقافة قد طورت على مر العصور، ووهبت أعضاءها **نزوعًا** سيكولوجيًا **متفردًا**، أو توجهًا متفردًا تجاه الواقع، وأن هذا النزوع قد حدد، فعلًا، كيف يتصور الأعضاء **المعلومات** ويفعلونها من البيئة، وأن **الثقافة تؤثر في الأساليب التي يعمل بها العقل** بالفعل.

لقد تطورت دراسات الثقافة والشخصية في اتجاهات متعددة، ولقد شككت الأبحاث حول أشكال تنشئة الأطفال في عالمية الاقتراحات الفرويدية المتعلقة بالعلاقات بين الوالد/ الطفل. ولقد ظهرت دراسات عديدة لأنساق القيمة، منحت الثقافة بموجب "صيغتها its configuration " الأنماط التي تجهلها الثقافة، أو ترفضها، أو الخصائص

القومية لبعض المجتمعات الحديثة، ومع ذلـــك، فقد تفاوتت نتائج هذه الدراسات في مترلتها المعرفية.

– **الماركسية الجديدة والتطورية الجديدة:** وأخيرًا استعادت بعض النزعات النظرية في القرن التاسع عشر شعبيتها، فقد حرص الأنثروبولوجيون الروس، لأسباب **سياسية**، على احياء تقاليد التحليل الماركسي، والتطورية الصارمة تمامًا، وعلى ربط أبحاثهم واختيارهم للموضوعات، أحيانًا، بالأيديولوجيا الرسمية، فقد كان برنامج الأنثروبولوجيا **الدينية** يهدف إلى اقصاء التحامل الديني بين السكان الروس. أما خارج روسيا، فقد حثت الماركسية جيلًا جديدًا من الأنثروبولوجيين، في فرنسا على سبيل المثال، للتركيز على تحليل الاقتصاديات البدائية، وفي الوقت نفسه قام عدد من الأنثروبولوجيين في الولايات المتحدة بإحياء التطورية الكلاسيكية، والحديث عن التطورية متعددة الخطوط، أو السبل العديدة للتحديث.

2– المكانة الحالية للأنثروبولوجيا الثقافية:

من الصحيح أن الأنثروبولوجيا الثقافية لم تصل بعد إلى حالة الاتساق التام. وهذا واضح من استمرار التقاليد القومية المتشعبة، ومن الأسلوب الذي يمقدور البحث أن يتلاقح به مع الأيديولوجيات الصريحة، أو المستترة. ومن الصحيح، أيضًا، أن المدارس الفكرية المختلفة تتعايش، عادة، في البلد ذاته، ومن ثم فإنَّ الأنثروبولوجيا الثقافية لم تتأسس بناءً على كيان موحد من المفاهيم، ونظرًا لأن تعريف العلم يقوم، في الأساس، على الرطانة المتجانسة اللازمة لتأويل مستوى محدد من الواقع، فإنَّه لا سبيل لوجود "علم" للثقافة، إلَّا إذا استطاع الأنثروبولوجيون تحرير أنفسهم من النزعة العرقية، ووضع المفاهيم، وما عداها انطلاقًا من العناصر التي تتميز بالعمومية، والموضوعية، والأهمية النظرية. يعتقد الوظيفيون أنهم حققوا هذه الشروط، ويتحدى البنيويون ذلـــك، ويحاولون– من جانبهم– الوفاء بها.

ومع ذلـــك لم تطور الأنثروبولوجيا الثقافية- بالمقابل لـــ**علم اللغة** على سبيل المثال- إلَّا علم للمصطلحات المتحيزة للغاية، غير المستقلة عن اللغات القومية أو الشخصية، وعلى حين لا تزال تلك القيود تصدم معظم العلوم الاجتماعية، فإنَّ الهدف الأولي للأنثروبولوجيا، وهو السماح بالمقارنة الثقافية المتقاطعة، يجعل من هذه المشكلة أخطر مما هي عليه بالمقارنة.

وتخضع الأنثروبولوجيا لاختبار قاس مختلف، لأن موضوعات دراستها التقليدية، وهي الثقافات "البدائية" أو "المتحولة"، في سبيلها للتواري، والاندثار، سواء بسبب صعوبة تكيفها ذاتها على العالم الحديث، أو لتحولها بفعل التأثير المباشر، أو غير المباشر للمجتمعات الصناعية الحديثة. هذا علاوة على أن المجتمعات التي ظلت على مستوى شعبي Folk قد تم استثناؤها، تقريبًا، من إدراجها بين المجتمعات التي تشكل موضوعًا للدراسة الأنثروبولوجية، وهو مظهر من مظاهر التنازل، وأثر من الآثار الباقية للهيمنة السياسية.

لقد دخل معظم البحث الأنثروبولوجي الدراسة المكتبية، أو المختبر، ومع ذلك فإنَّ أحد الانتقادات التي وجهت لـــ**بواس** ولـــمَنْ انشغل بالعمل الميداني المحض هو أنهم لم يكونوا مصنفين، وإنَّما مجرد جامعي مادة، وقد كان لديهم ثروة ضخمة من المادة الإثنوجرافية يجب تحليلها، وتحقيقها، وتصنيفها وتأويلها حتى يمكن الإفادة منها، ولذلك قاموا بترتيب ملفات المعلومات فيما عرف باسم "الملفات الإقليمية للعلاقات الإنسانية"، وقاموا بوضع مصنفات، اعتمدت على الأنساق السياسية، أو التكنولوجيا، أو أنساق القرابة. وبالإضافة لذلـــك، فقد قاموا بإعادة قراءة المادة على أمل وضع صياغات رياضية، أو نماذج لها، ونتيجة لذلك ظهرت دراسة المجتمعات المعروفة بشكل غير ملائم باستخدام تقنيات المحاكاة.

لقد رفض كثيرون من الأنثروبولوجيين التحول إلى المختبر، واستمروا في القيام بأبحاث ميدانية، سواء للتجمعات السكانية الغربية، أو لـــ**أبناء المستعمرات** السابقة

الخاضعين حاليًا للتحديث، ولقد التحق بهم في هذه المهمة باحثون وطنيون من هذه التجمعات السكانية ذاتها. وعند البعض توفر الدراسات الميدانية الفرصة المواتية للأنثروبولوجيين لاجتياز إحدى التجارب الأنثروبولوجية الحقيقية، واختبار كيف يستجيب الشعب لتأثيرات التحديث، وكيف تتطور عناصر الثقافة القديمة إلى عناصر الثقافة الجديدة. **ويرفض هؤلاء الأنثروبولوجيون المفهوم القائل إنَّ الأنساق الاجتماعية تبحث عن "التكامل"، و"التوازن"، ويقترحون- عوضًا عن ذلـــك- تأويلًا أكثر دينامية للمجتمعات التقليدية، ويؤكدون على الدور الذي تلعبه التوترات والصراعات فيها.**

على أية حال، في وقت أصبحت فيه مشكلات التنمية ضمن الاهتمامات الأولية للعالم بأسره، كرس عدد متزايد من الأنثروبولوجيين أنفسهم لبحث النتائج التي يمكن الإفادة منها في رسم السياسات العملية واتخاذ القرار، سواء تم توظيفهم مباشرة من قبل الحكومات المهتمة، أو من قبل الحكومات الأجنبية، أو المنظمات الدولية، أو تم تجنيدهم من قبل المؤسسات من أجل الدراسة والتنمية.

ولقد كان ظهور **الأنثروبولوجيين غير الغربيين**، يمثل أحد التطورات المهمة التي حدثت في النصف الأخير من القرن العشرين، لقد كانت الأنثروبولوجيا الثقافية، في الأصل، بمثابة **اهتمام ومشروع غربي حصريًا**، ولقد استمرت في ممارسة هيمنتها عبر الأنثروبولوجيين الغربيين، ولقد ظل عدد الأنثروبولوجيين غير الغربيين في البلاد غير الغربية التي تضاعفت فيها معاهد الأنثروبولوجيا، وأقسامها الجامعية-كما نجد في اليابان والهند، وبعض الأمم في أمريكا اللاتينية- محدودًا، وتقدم اليابان مثالًا لذلـــك، على فرض أن الأنثروبولوجيا الثقافية كعلم مستقل لاتزال هزيلة هناك، وهي لم تظهر- في اليابان- إلَّا منذ الحرب العالمية الثانية فقط، وقد كان الأنثروبولوجيون اليابانيون، في الكليات اليابانية معلمين **مهجنين**، ينسبون أنفسهم إلى السوسيولوجيا، أو إلى أقسام العلم الاجتماعي حينًا،

ويدرسون السوسيولوجيا، أو أي فرع من فروع المعرفة الأخرى، بالإضافة للأنثروبولوجيا حينًا آخر، ولم تكن مقررات الأنثروبولوجيا الثقافية ضئيلة وحسب، وإنَّما كانت التمويلات اللازمة للدراسات الميدانية شحيحة أيضًا، ومن ثم لم يظهر إلَّا عدد محدود من الدراسات التفصيلية والمكثفة، ولم يركز البحث إلَّا على المجتمعات المحلية اليابانية، أو الشرقية، والجنوبية الشرقية الأسيوية. وعلاوة على ذلـــك، فلقد تقاسم الأنثروبولوجيون اليابانيون المشكلة التي سبق أن جابهها الأنثروبولوجيون غير الغربيين، وهى أن **اللغة الوطنية** التي يكتبون فيها لم تكن في **متناول الأجانب** مثلما كانت اللغات الأوروبية الغربية. لقد لاحظ الأنثروبولوجي الياباني **تاكو صوفيو** T.Sofue أن الاتصال الدولي كان حسيرًا للغاية، مما أدى إلى انعزال العلماء اليابانيين عن النقد الفعال الآتي من خارج اليابان (Sofue,1969). وهذا يعني- أيضًا- أن أحدًا لم يقرأهم من خارج اليابان لتفعيل تأثيرهم، هذا مع أن هذه المشكلة لم تكن بالخطورة ذاتها في البلاد غير الأوروبية الآخرى، حيث كانت الإنجليزية تؤلف في الهند، على سبيل المثال، اللغة الرئيسية للاتصال الثقافي.

3- مشكلات الأنثروبولوجيا الثقافية التطبيقية:

من وجهة نظر الأنثروبولوجي، إنَّ للدراسات التطبيقية- المقصود بها أن تقدم الأبحاث العون العلمي، والتوجيه للحكومات وغيرها من المؤسسات- مردودًا لا يخامره شك من نواح عديدة، ولقد قدمت الدراسات التطبيقية للأنثروبولوجيا- باهتمامها كما هو الواقع تقريبًا بتأثيرات التغير الاجتماعي- المدخل الأقرب لـــ**التجربة الموجهة** في العلوم الاجتماعية. لقد عمقت البحوث المتخصصة معرفة المظاهر الخاصة بالمجتمع والثقافة

البدائيين، وعلى الأخص ما يتصل منها بالتنظيم الاقتصادي والسياسي، وملكية الأراضي، والقانون. وبعيدًا عن القيمة العلمية، فقد وفر الانخراط في الميدان التطبيقي للعديد من الأنثروبولوجيين، أيضًا، القناعة الإنسانية المحضة، نتيجة مساعدتهم للشعوب المتخلفة في نضالها لمجابهة قوى الحضارة الغربية، والتفوق فيها.

من الصعب للغاية تقييم المكاسب الملموسة المستمدة من الحكومات الاستعمارية، لأن **الحكام المستعمرين لم يكونوا ملزمين بالعمل وفقًا للنتائج الأنثروبولوجية**، ولأن قيمة هذه النتائج لم تكن مقبولة بشكل ساحق دائمًا. فأحيانًا، كان الأنثروبولوجي يجد نفسه محاطًا بثقة مفرطة من قبل مستخدميه، على فرض أنه يملك مفتاحًا لحل سائر المشكلات، وفي أغلب الأحوال كان **الـــمُجندون لهم** يميلون للتشكيك فيما إذا كان ثمة فائدة حقيقية للأنثروبولوجيا، وفيما إذا كانت المعلومات الأنثروبولوجية لا غنى عنها كما يحلو للمتحمسين لها الصدح دائمًا، لقد كان هناك شعور بالضجر من **الأنثروبولوجي "الأكاديمي"** الذي قد يؤكد على الدراسات الشمولية، وإن لم يُطلب منه إلَّا بعض المعلومات النوعية، أو الذي يتناول قضايا قد تبدو للرجل العملي واضحة، ويقوم بصياغتها في رطانة تتسم بالتعقيد. وقد يجيب الأنثروبولوجيون على ذلك بأن المعرفة التي يبحثون عنها، قد لا تكون ضرورية للحكام، ومع ذلك فإنَّها تيسر التوجه الرصين والخبير بالأشياء.

ولكن لقد كان على الأنثروبولوجيين، أيضًا، مجابهة نقدًا آخرًا، أكثر ازعاجًا، وهو أنهم يفرطون في التأكيد على أهمية التقاليد، وأنهم معادون للتطور الحديث. وفي الواقع لم يقتصر هذا الرأي على **رجال الإدارة الاستعمارية**، حيث جهر الأفريقيون والأندونيسيون المثقفون صراحة بعدم ثقتهم في "علم" اهتم، في الأساس، بالشعوب "البدائية"، ويتصرف بطريقة تعود عليها بالضرر، وتعود بالمنفعة إلى أيادي الرجعيين، ومؤيدي "الاستعمارية".

إذا لم تدلنا هذه الاعتراضات على مستقبل الأنثروبولوجيا التطبيقية، فإنَّ الأنثروبولوجيين، أنفسهم، قد أصبحوا أكثر حذرًا، أو احتراسًا، وقد أعلنوا عن تخوفهم من اغراء العمل التطبيقي للأنثروبولوجيين الأصغر سنًا للابتعاد عن البحث النظري العام، وهو ما يعرض التقدم الحقيقي لفرع المعرفة للخطر، وبالعكس، فإن مْنّ يتعهدون بالكامل البحث التطبيقي- مثل الأنثروبولوجيين الحكوميين الدائمين- قد يتعرضون لخطر فقدان الاتصال بالجامعات والمراكز الأكاديمية، ومن ثم، التواصل مع الانجازات، التي تحققت في فرع المعرفة الذي ينتمون إليه، وقد يتحولون إلى مجرد تقنيين، وربما يظلون مفيدين لـــمُجندِيهم، ولكنهم لن يكونوا ممثلين حقيقيين للمعرفة الأنثروبولوجية الحقة.

ثمة مشكلات أكثر إرباكًا ذات طبيعة خُلُقية، على فرض أن تغير الأدوار قد فرض علي الأنثروبولوجي، حين يستشار بشأن الأسلوب الأمثل لاتمام بعض السياسات العملية الحكومية، التزامات خُلُقية، من المؤكد أنه قد لا يرى سببًا لمعارضة السياسة العملية، وأن الأسلوب الأمثل لفرضها- كما هو مفهوم- يرتبط بخدمة مصالح الشعوب الوطنية على النحو الأمثل، وعلى هذا النحو فإنَّ الأنثروبولوجي- عند تخليه عن وجهة نظر رجل العلم- حين يبدي رأيه في استحقاقات بعض مساقات الفعل، أو عدم استحقاقاتها، يكون قد أقحم أحكام القيمة، هذا مع أن القضايا لن تكون واضحة وغير مثيرة للخلاف دائمًا، وفي تلك الحالة عليه أن يؤيد طرفًا في نزاعه، وأن يؤكد قناعاته السياسية والخُلُقية، وإذا لم تتح لتوصياته الفرصة لرفض الاعتبارات التنفيذية، أو املاءات السياسة العملية الأعلى، قد تزيد الإحباطات الشخصية من التشكيك في موقفه.

من الناحية الأخرى، إذا قدم الأنثروبولوجي الحقائق دون ردفها بالتوصيات، أو التحذيرات، فإنه قد يقرن- في هذه الحالة- المعلومات التي يمكن استخداماتها بالمعلومات التي لا يقرها ضميره السليم، أو قد يُغوى الأنثروبولوجي بأن يقصر نصائحه على الوسائل الأوفق لتحقيق بعض النتائج دون ما عداها، دون إغفال الأهداف ذاتها التي لا يمكنها أن

تلغي تعهده الخـــُلُقي، وذلك على فرض أن السياسة العملية التي يجب اتمامها ليست من شأنه.

لقد أدارت هذه القضايا- بين الحين والآخر- جدالًا حارًا بين الأنثروبولوجيين، وفي محاولة لتنقية الأجواء نشرت "جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية" فى عام 1951 دستورًا مكتوبًا للأخلاق، ولقد احتكم هذا الدستور إلى الضمير الاجتماعي للباحث الفرد، ومسئوليته- في جميع الأوقات- عن دعم العقائد الخـــُلُقية للحضارة: أي احترام الفرد، واحترام الحقوق الإنسانية، وتدعيم الرفاهية الإنسانية والاجتماعية، ولم يكن جميع الأنثروبولوجيين مهيئين للتصديق على هذه الرسالة الخـــُلُقية من جانب العالم غير المهتم، ولذلك ظل المأزق- على الرغم من حيويته فيما يتعلق بمستقبل الأنثروبولوجيا التطبيقية- قائمًا.

رابعًا: تطورات فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية:

الاستقصاءات القديمة: كان تاريخ الأنثروبولوجيا الفيزيقية، في معظمه، تاريخًا لمحاولة الإنسان تحديد موضعه في العالم الطبيعي، ومقارنة ذاته مع ما عداه من الرئيسيات (أو الثدييات) الأخرى، وتأويل الاختلافات الفيزيقية بين السلالات، ولقد كان المفهوم الأساسي الذى شكل الافتراض المنظم لعلم تصنيف الرئيسيات- منذ استهلاله وحتى عقب الظهور الرسمي لنظرية التطور في عام 1859- هو فكرة "السلسلة العظمي للوجود"، أو "الترتيب التراتبي للطبيعة". ولقد جعلت هذه النظرية التفسيرية الكبري من المفهوم المتلازم- أي مفهوم الحلقة المفقودة المشهورة- مفهومًا ضروريًا، ولقد ثبت أن الحلقة المفقودة لم تكن ذات قيمة للعلماء بقدر ماكان لها من القيمة لمخرج الاستعراضات الأمريكي **بارنوم** P.T.Barnum، الذى قام بتسلية الجمهور العام بعينات من كافة الحلقات المفقودة التي أمكن تخيلها بين المجموعات التصنيفية للحيوانات، متوهمًا القاسم الخصب لحورية الماء.

لقد تمثلت النتيجة المفيدة للاعتقاد في التدرج الخطى الأحادي في البحث عن الأشكال المجهولة- فيما سبق- في معرفة الإنسان لسلسلة الوجود، ومع هذه الرخصة الحصرية صدر الأمر لعلماء أوروبا الغربية لإجراء جرد تفصيلي للطبيعة، وتحديد الموضع الملائم لكل شكل موصوف حديثًا. ومن الناحية العملية، لم يوفر ذلـــك فهمًا لموضع الإنسان في الطبيعة فقط، وإنما وفر فَهمًّا لموضع سائر الكائنات الحية الأخرى أيضًا، ثم امتد هذا الفهم للثقافة كذلك. وفي غياب علم للوراثة، ومفهوم للثقافة، اُستخدمت سمات الشخصية بالإضافة إلى لون البشرة في التصنيف، ولقد امتلأ القرن التاسع عشر بأعمال كُرست لترتيب أشباه الإنسان، والقردة، والسلالات المكتشفة حديثًا معًا، وعلى حين استقصي البعض أشباه الإنسان، تأثر البعض الآخر باحتمال أن تكون الجماعات المتنوعة من السكان الأصليين المجهولين هي الحلقة أو الحلقات المفقودة، وهكذا حُشد "الهتنتوت الهمجيون"، أو الوطني المتبلد في نوفا زيمبالا Nova Zembla معًا لملْء الفجوة بين أشباه البشر والإنسان.

بعد نشر كتاب **داروين**: "أصل الأنواع" في عام 1859 تزايدت أهمية فكرة التطور، وتقريبًا يكمن الانجاز الرئيسي للفترة الواقعة بين عامي 1859 و1900 في الاعتراف بالعمق الزمني الهائل فيما يتعلق بالإنسان، فعلى حين ظل نظام ترتيب الرئيسيات نظامًا خطيًا آحاديًا، أمتدّ- بشكل موغل في القدم- إلى الماضي الجيولوجي السحيق، لقد رتب البعض السلالات الحفرية، والمعاصرة للإنسان وفقًا لدرجة البدائية المورفولوجية المفترضة لها، وقام علماء الإحاثة بإرساء نتائج الأشكال المنقرضة للحيوانات، وقام الأركيولوجيون بالتنقيب عن الثقافات الأقدم، ولقد أدى اكتشاف جماجم إنسان نياندرتال إلى تحديد العصور العتيقة للإنسان، بالإضافة إلى الأشكال الأخرى للحياة العضوية، وهكذا أصبح للسلسلة التطورية الأهمية الأولى.

مع نهاية القرن التاسع عشر اكتملت بعض التصنيفات المفيدة للسلالات، وتمت معرفة كثير من الاختلافات بين السلالات تمامًا. وبطريقة مماثلة قام بعض العلماء بجرد تفصيلي للاختلافات بين الإنسان وأشباه البشر، وبين الإنسان الحديث والإنسان الحفري، ولقد وُجه جلٌ هذا الاهتمام إلى عدد الاختلافات، وافتراض أن درجة القرابة بينهما يمكن الدلالة عليها بشكل ملائم بتحديد درجة الشبه المورفولوجي بينها.

1- علم الوراثة وتنميط الدم:

يمكن النظر لعام 1900 بوصفه يمثل نقطة تحول في تطور مدخل تصوري جديد، وبالرغم من عدم قدرة تاريخ واحد على أن يدرج- بشكل كامل- التحول الذي تم في هذا المتصل المفرط في التعقيد، فقد حدث- آنذاك- حدثان كانت لهما آثار بعيدة المدى: الأول تمثل في إعادة اكتشاف المبادي الوراثية لـــ**جريجور جوهان مندل** G.J.Mendel، والثاني في اكتشاف مجموعات الدم ABO، ومع أن **مندل** قد وضع المبادئ الأساسية للوراثة في عام 1865، إلَّا أنها مرت لم يلاحظها أحد، ومع أن توارث مجموعات الدم لم يلق- في البداية- تقديرًا كافيًا، أصبح يمثل- فى غضون عشر سنوات- البؤرة المحورية للبحث، ومن ثم صار أشبه بحجر الزاوية في الدراسات السلالية الحديثة، ومع التأثير المتزايد للنظرية الوراثية طبقت المفاهيم الجديدة، ووُجه الاهتمام الفوري لعمليات التغير، والآساليب التي تتحول بها التكرارات الجينية، وفي الوقت نفسه تزايد الاهتمام بمغزى السمات، وبالأساليب التي تتفاعل بها. ولقد اتجهت الدراسات التجريبية إلى إيضاح المغزى الوظيفي للاختلافات في المورفولوجيا، وتعدل مفهوم التطور المستقيم (أو التكون القويم Orthogenesis) ودرست، بشكل موضوعي، أمثلة للانقلابات، أو التحولات الرئيسية في اتجاه التطور، ودخل مفهوم الحلقة المفقودة إلى دائرة النبذ والاهمال.

لقد تفادى التحقق من أن تغيرًا في أسلوب من الحياة هو الذي أدخل نوعًا حيًا في طور تكيفي جديد، وأحدث عددًا من التغيرات الجذرية في بنيته، الحاجة للاعتقاد فيما

سُمي بالحلقات المفقودة، ولقد تعززت تقنيات الأنثربومتري (قياس الجسم البشري، أو القياس الفسيولوجي للإنسان) بفضل عدد من التقنيات الأخرى، مثل تنميط الدم، ولقد أمدت هذه التقنيات جميعها الأنثروبولوجيا الفيزيقية بمجموعة متعددة الاستعمال من الأدوات البحثية.

2- المكانة الحالية للأنثروبولوجيا الفيزيقية: لقد تم إلقاء كثير من الضوء على علاقة الإنسان بالرئيسيات الأخرى، وعلى طبيعة التحول الطاريء على هيكله العظمي أثناء مساق التطور من الإنسان القديم إلى الإنسان الحديث، فى فترات امتدت زمنيًا خمسمائة ألف عام على أقل تقدير، ولقد كشف اكتشاف القردة العليا الأفريقية الجنوبية، والأشكال المماثلة لها فى شرق أفريقيا- ابتداء من عام 1959- عن معطيات غير متوقعة، وهي أن التركيب المتنوع للسمات يمكن أن يتعايش معًا، وأن الوقفه منتصبة القامة قد سبقت، من الناحية الزمنية، التمدد العظيم للمخ أثناء مساق التطور الإنساني.

لقد تم معرفة كثير من العمليات المسئولة عن تخلق الإنسان إلى سلالات مختلفة، هذا مع أنه ظل نوعًا حيًا واحدًا، وهو الإنسان العاقل: وتتمثل تلك العمليات في الانتخاب، والاتجاه الوراثي، والهجرة، والتغير الإحيائي. ولقد وفرت المناهج الموضوعية لعزل مختلف أنواع السمات، والبحث الرياضي في تكراراتها، بالإضافة إلى مغزاها الوظيفي أو التطورى، فهمًا ملائمًا لتكوين المجموعات السكانية الإنسانية، وصياغة الفرضيات المتعلقة بمستقبلها، ومن ثم أصبح من الممكن لأي شخص أن يتعلم حول تركيبه الوراثي الخاص بالإحالة إلى السمات التى تتراوح بين أنماط الدم، وحتى الأنماط الشقية fissural لأسنانه الضرسية، وأن يعرف تواتر هذه السمات في مختلف السلالات حول العالم وتوزيعها فيها، وأن يحصل أيضًا على تقدير دقيق للاحتمالية التى سيرث أطفاله بها هذه المظاهر.

- **ميادين البحث**: يمكن التعرف على ميدان الأنثروبولوجيا الفيزيقية بمراجعة الميادين العامة للاستقصاء، التى انشغل الباحثون المستقلون بها مثل الايكولوجيا البشرية، أو علاقة الكائن

الإنساني الحي ببيئته، والعلوم البيولوجية والاجتماعية التي توضح المشكلات المهمة لحجم السكان، وثباته، ويتمثل التحدي المباشر الحقيقي في إمكانية تحديد المعدل المتباين للتغير الذي قد يظهر فى المجموعات السكانية ذوي الأحجام المختلفة .

ويمثل التطور الإنساني مجالًا آخرَ يستخدم كبؤرة للبحث، ولا تتمثل المشكلات الجوهرية للتطور الإنساني في الوصف الكامل للأشكال الحفرية فقط، وإنما في تقييم مغزى السمات المستقلة أيضًا، لقد قفزت المفهومات الجديدة للتطور الإشعاعي radiant والموازي إلى المقدمة، ولقد أصبح واضحًا أن مساق التطور الإنساني قد يتأرجح من الناحية الزمنية، بحيث أن ما اعتبر فى السابق شكلًا حديثًا نسبيًا قد يكون من الناحية الفعلية قد سبق من الناحية المورفولوجية الأشكال الأقدم، فنظرًا للعثور على الإنسان الحفري للعصور العتيقة في أوروبا وآسيا وإفريقيا، علي سبيل المثال، أصبح معلومًا أن النوع الأحدث من إنسان نياندرتال قد سبق الشكل الأقدم أو الأكثر بدائية للإنسان، ونظرًا لعدم وجود منطقة في العالم تخلو من البقايا الهيكلية، فقد انشغل الباحثون في كل مكان بدراسات الهيكل الإنساني.

ويمثل علم الرئيسيات مجالًا لم يعد موضع الإنسان في الطبيعة يمثل فيه البؤرة الرئيسية، حيث يهتم الباحثون بالمظاهر التجريبية، والطبية، والايكولوجية للرئيسيات، ولقد اشتق منه معظم المغزى الوظيفي لمختلف لمركبات العظمية والعضلية، على فرض أن الرئيسيات توفر معملًا طبيعيًا لمختلف أنواع تجارب التكيف الفيزيقي لأساليب الحياة المختلفة، أو للأحزمة التكيفية.

ويمثل علم الوراثة مجالًا رئيسيًا **رابعًا** للبحث، وفي هذا المجال لم تعد دراسة السمات الموروثة في الأفراد، وسلوك الجينات المسئولة عنها في المجموعات السكانية المختلفة تمثل شيئًا أساسيًا لفهم المتغيرية الإنسانية، وبالرغم من أن مجموعات الدم توفر الكتلة الأساسية للمادة، تم تحليل كثير من السمات الأخرى، واختيار نظريات الوراثة الخاصة بها، ونتيجة لهذا البحث

أصبح بالإمكان وصف السلالات في علاقتها بتواتراتها الجينية، وحساب مقادير الاختلاط السلالى فيها.

– **دراسات النمو**: تشغل الكائنات الإنسانية والرئيسيات الأخرى اهتمام كثير من الأنثروبولوجيين الفيزيقيين في كليات الطب، وطب الأسنان، بالإضافة إلى العيادات الخاصة والجامعات، وتمثل مناهج تقييم معدلات النمو، والعمر الهيكلي (مقارنة بالعمر الكرونولوجي المتسلسل)، والعوامل الوراثية، والغدد الصماء، والعوامل الغذائية جانبًا من المظاهر المستغرقة في هذه الدراسات. ولقد لاقت العلاقة بين النمو والمكانة السوسيو–ثقافية، والعوامل الثقافية الأخرى اهتمامًا كبيرًا في هذا الميدان.

– **الأنثربومتري والقياسات الأخرى**: لقد كان الأنثربومتري، أو القياس يمثل الدعامة الأساسية للبحث الأنثروبولوجي لفترة زادت على قرن من الزمان، لقد تزايد الاهتمام بالاختيار الحكيم للقياسات مقارنة بالتقينات البسيطة التي أمسكت بها المسماكات (أدوات قياس السمك أو الثخانة)، ونظرًا لأهمية الدروس الإحصائية في البحث الوراثي والأنثربومتري خصوصًا، فقد تماثل جزء من تاريخ علم الاحصاء مع تاريخ هذين الاهتمامين البحثيين، وذلك على فرض عدم إمكانية التوصل إلى النتائج النهائية للنمو إلَّا بواسطة القياس، ولقد تتبعت دراسات النمو الأحدث الأطفال أثناء تغيراتهم المورفولوجية، والبيوكيميائية من أجل تمييز سبب نمو الأطفال.

وفي الواقع تكمن كثير من تطبيقات الأنثروبولوجيا الفيزيقية في ميدان القياس، ومن ثم فقد اعتمدت المشكلات المتعلقة بتوفير الملابس العسكرية والمدنية لعدد ضخم من البشر على القياس والمعالجة الاحصائية، لقد أصبح توفير التجهيزات الأساسية ممكنًا بفعل قياس اجسام الأهالي في منطقة معينة، وتعديل تعرفة الملابس في ضوء التوزيعات المعروفة لمقاسات الاجسام، يوجد تباين ملائم داخل معظم البلدان بحيث أصبح للتباينات الجغرافية في مقاسات الاجسام، وحصصها المتوسطة أهمية خاصة، ويمثل قياس البنيان الإنساني مجالًا آخرَ للاهتمام

البحثي، وتوجد أنظمة وصفية عديدة لتصنيف الأشخاص المتباينين بين البنية الجسمية الجانبية، والمكتنزة نسبيًا، وحتى البنيان العضلي نسبيًا، أو البنيان الفارع، ولقد درست مكونات البنيان الجسمي- الأنسجة العضلية والأبعاد المختلفة، ومع أن هذه الميادين ليست حصرية، فإنها تشكل- من الناحية المثالية- جزءًا من تدريب الباحثين في مجال أصل الإنسان وتطوره.